تفسير ابن كثير

يقول تعالى : قل يا محمد للكافرين { ستغلبون } أي في الدنيا { وتحشرون } أي يوم القيامة { إلى جهنم وبئس المهاد } وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار عن عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال [يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا فقالوا : يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا] فأنزل الله في ذلك قوله { قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد * قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار } وقد رواه محمد بن إسحاق أيضا عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس فذكره ولهذا قال تعالى : { قد كان لكم آية } أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم { آية } أي دلالة على أن الله معز دينه وناصر رسوله ومظهر كلمته ومعل أمره { في فئتين } أي طائفتين { التقتا } أي للقتال { فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة } وهم مشركو قريش يوم بدر وقوله : { يرونهم مثليهم رأي العين } قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير : يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم أي جعل الله ذلك فيما رأوه سببا لنصرة الإسلام عليهم وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزر لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلثمائة يزيدون قليلا أو ينقصون وهكذا كان الأمر كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم .

(والقول الثاني) أن المعنى في قوله تعالى : { يرونهم مثليهم رأي العين } أي ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم أي ضعفيهم في العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي عن ابن عباس : أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلا وكأن هذاالقول مأخوذ من ظاهر هذه الاية ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما سأل ذلك العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قريش قال : كثير قال [كم ينحرون كل يوم ؟ قال : يوما تسعا ويوما عشرا فقال النبي صلى الله عليه وسلّم : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف] وروى أبو

إسحاق السبيعي عن حارثة عن علي Bه قال : كانوا ألفا وكذا قال ابن مسعود والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف وعلى كل تقدير كانوا ثلاثة أمثال المسلمين وعلى هذا فيشكل هذاالقول وا أعلم لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحا كما تقول : عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها وتكون محتاجا إلى ثلاثة آلاف كذا قال وعلى هذا فلا إشكال لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين وهو أن يقال : ما الجمع بين هذه الاية وبين قوله تعالى في قصة بدر { وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي ا أمرا كان مفعولا } فالجواب أن هذا كان في حالة والاخر كان في حالة أخرى كما قال السدي عن الطيب عن ابن مسعود في قوله تعالى : { قد كان لكم آية في فئتين التقتا } الاية قال : هذا يوم بدر قال عبد ا بن مسعود : وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا وذلك قوله تعالى : { وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم } الاية وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد ا بن مسعود قال : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة قال : فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم ؟ قال : ألفا فعندما عاين كل من الفريقين الاخر رأى المسلمون المشركين مثليهم أي أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم D ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل ا هؤلاء في أعين هؤلاء وهؤلاء في أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الاخر { ليقضي ا أمرا كان مفعولا } أي ليفرق بين الحق والباطل فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ويعز المؤمنين ويذل الكافرين كما قال تعالى : { ولقد نصركم ا ببدر وأنتم أذلة } وقال ههنا { وا يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار } أي إن في ذلك لمعتبرا لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة ا وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد